مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية
المجلد ٤ ـ العدد ٤ من ١١ إلى ١٥

صفر ١٤٠٢هـ
كانون الأول ١٩٨١م.

في الاقتصاد اللغوي

الدكتور
نجيب غزاوي
كلية الآداب

يتناول هذا البحث ظاهرة ترافق وظيفة الاتصال اللغوي وتعتبر احدى خصائصه الهامة . ألا وهي ظاهرة الاقتصاد اللغوي .

فقانون الجهد الأقل ومتطلبات الحياة اليومية السريعة تحكم شكل الاتصال اللغوي وتستبعد التراكيب المعقدة المكلفة لتحل محلها تراكيب بسيطة اقتصادية .

ولقد قدمنا في هذا البحث مجموعة من الامثلة التي توضح الأشكال التي يأخذها الاقتصاد اللغوي في كل من اللغة الفرنسية والعربية .

وأشرنا أخيراً الى أن هذه الظاهرة تلعب دوراً أساسياً في تطور اللغة من خلال استبدال البنى المعقدة بالبنى البسيطة ونحت العديد من البنى الجديدة البسيطة .

يقول «اندره مارتينيه» : «إن الوظيفة الأساسية للغة البشرية هي السماح للانسان بنقل تجربته الى أقرانه» [١]

أما الوظائف الأخرى لهذا النشاط الانساني فتعتبر هامشية . صحيح أن اللغات تستخدم وسيلة للتفكير ، فحين نفكر إنما نستخدم كلمات وجملاً . واللغات وسيلة للتعبير ، كما أنها تستخدم لغايات جمالية وأدبية شعراً أم نثراً . غير أن هذه الوظائف جميعاً لا تتحقق إلاّ اذا حافظت اللغة على دورها الأساسي باعتبارها وسيلة اتصال أو نقل .

والنقل أو الاتصال يتطلبان جهداً وطاقة أي كلفة . فلفظ الكلمات وحفظها في الذاكرة واستخدامها يتطلبان جهداً عضلياً يقوم به جهاز التصويت لدى الانسان كما يتطلب جهداً فكرياً وعصبياً .

وتقول نظريات الاعلام إن كلفة الكلمة تحسب على أساس عدد الأحرف التي تكونها في لغة الكتابة وعلى أساس عدد الفونيمات التي تحتويها في لغة الكلام المنطوق . وبعبارة أخرى إن كلفة الكلمة تتناسب طرداً مع تعقيدها الشكلي والفونولوجي [٢] أي مع عدد الأحرف والفونيمات التي تؤلفها . ومن البديهي أن كلغة كلمة «استصحار» تفوق بكثير كلغة كلمة مثل «عود» . اذا نحن أخذنا بعين الاعتبار عدد الفونيمات او الأحرف التي تكونها وكذلك الجهد المبذول لنطق كل منها . فلدينا ستة فونيمات في كلمة «استصحار» فيما لا تحتوي كلمة «عود» سوى ثلاثة منها .

يتطلب الاتصال والحال كذلك جهداً وطاقة للنطق والحفظ في الذاكرة فيما يدفع الخمول ومتطلبات الحياة اليومية السريعة الى اختيار التراكيب والبنى اللغوية البسيطة اي الأقل كلفة والى تفضيلها على البنى المعقدة المكلفة . ويطور الخمول اللغة بشكل غير مباشر من خلال تكوين تراكيب وكلمات ذات طابع اقتصادي تحل محل التراكيب والكلمات المعقدة المكلفة . ان القانون المعروف بقانون الجهد الأقل هو الذي يتحكم في اختيار هذه البنى البسيطة وتكوينها .

ويمكن ان نقدم فيما يلي مجموعة من الأمثلة عن مظاهر الاقتصاد اللغوي في كل من اللغة العربية واللغة الفرنسية على المستوى الفونولوجي وعلى المستوى الصرفي وعلى المستوى النحوي :

ا ـ **فعلى المستوى الفونولوجي** : نلاحظ ان هناك فروقاً صوتية قد زالت أو بدأت في الزوال بين بعض الكلمات في كل الحالات التي لا يؤدي فيها هذا الزوال الى خلط في فهم في المعنى . ونلاحظ ان الفرق بين [œ] و [ɛ̂] التي كانت تميز بين مجموعتي كلمات من نموذج brun brin قد زال في اللغة الفرنسية المعاصرة فهو فرق دقيق مكلف فقد قيمته التمييزية لأن

مجموعتي الكلمات التي يميز بينها لا يمكن ان تلتقي في سياقين متشابهين . نقول هنا ان ظاهرة الاقتصاد اللغوي ومن ورائها النزعة الى الخمول قد ألغت فونيماً لمصلحة آخر ودون أن تتأثر عملية الاتصال اللغوي في شيء .

ونلاحظ ان بعض الفروق الفونولوجية قد زالت أيضاً في اللغة العربية العامية وللسبب نفسه . فقد زالت الصفة اللثوية التي تميز مجموعة من الفونيمات مثل ت/ ث س/ ث د/ ذ الخ فهنالك «هدا» بدل «هذا» و«ضهر» بل «ظهر» . وسناء بدل «ثناء» و«اتنين» بدل «اثنين» . إن إلغاء الصفة اللثوية يعتبر اختصاراً في الجهد العضلي ينتج عنه اقتصاد في الحركات اللازمة للفظ الفوينم المذكور . ولقد سهل عملية إلغاء الصفة اللثوية هذه ان زوالها لا يؤدي الى خلط في الفهم والدلالة في السياقات التي يرد فيها الالغاء المذكور . ونشير أيضا الى ظاهرة تسكين أواخر الكلمات في اللغة العامية والذي يعني حذف فوينم من آخر الكلمة مما يمثل اختصاراً في الجهد العضلي والفكري فبذلك نتجنب مسألة الاعراب ، والسياق هنا أيضاً يلعب دوراً في تلافي الغموض الدلالي الذي يمكن ان ينتج عن هذا التسكين .

ب ـ على المستوى الصرفي :

تحل في اللغة الفرنسية أفعال من المجموعة الأولى القاعدية البسيطة التصريف من نموذج فعل marcher المنتهي بـ ER حيث لا يبدل التصريف سوى النهايات فيما يظل جذر الفعل march على ما هو عليه في كل الأحوال ، تحل هذه الأفعال محل أفعال المجموعة الثالثة من نموذج الأفعال التي تنتهي بـ RE, OIR, IR ذات التصريف المعقد الشاذ حيث التصريف يبدل النهايات والجذر . وهكذا فقد استبدل ، في اللغة الفرنسية ، فعل cuire بفعل cuisiner المنحوت على نمط marcher والذي يصرف مثله ، كما حل فعل solutionner محل resoudre المعقد صرفياً وللغاية نفسها ، كما ان نحت أفعال جديدة تتطلبها تطورات الحياة التكنولوجية والعملية انما يتم على أساس أفعال المجموعة الاولى القاعدية البسيطة .

جـ ـ على المستوى النحوي :

يمكن ان نعتبر تركيباً مثل :

أريد أن آكل .

تعبيراً معقداً مكلفاً بالنسبة للتركيب التالي المساوي له دلالياً

أريد الأكل

البسيط الاقتصادي بسبب حذف «أن» المصدرية وكذلك الحال بالنسبة للتركيبين التاليين

الرجل الذي يركض

الرجل الراكض

فنحن أمام تركيبين يؤ ديان المعنى نفسه فيا التركيب الثاني أقل كلفة وأكثر اقتصاداً من التعبير الأول بسبب حذف الاسم الموصول واستبدال الفعل بالمصدر .

ولقد لاحظنا ان اللغة الفرنسيـة المعاصرة تميـل أكثر فأكثر الى استخدام التعابير الاقتصادي من النموذج الـذي عرضناه من اللغة العربيـة . فتكثر التراكيـب من النموذج البسيط الاقتصادية من النموذج التالي :

Il valait mieux enfinir, ne pas se defendre

حيث يستخدم المصدر بدل تركيب معقد موازٍ دلالياً من النموذج التالي :

Il valait mieux qu, on enfinisse, qu,on ne se defende pxas

حيث التعقيـد ينتج عن استخدام اداة الـوصل que والتصريف المعقد جداً لصيغة subijonctiy . لقد تلافينا اذن في الجملة الاولى مجموعة من التعقيدات الشكليـة والنحويـة واستبدلناها بالمصدر البسيط والاقتصادي .

ومسألة اخرى . تعتبر الاضافة احدى الوسائل التي تستخدم لتوضيح دلالة كلمة تعبر عن مفهوم عام ، كأن نقول «طائرة» التي تشير الى المفهوم العام دون اي تحديد . نقول ان هذه الكلمة بحاجة الى الاضافة لتحديد معناها العام او لتقليص حقل دلالتها كأن نقول ، «طائرة شراعية» «طائرة نفاثة» ، «طائرة كارافيل» «طائرة بوينغ» .

إن البشر في تطور حاجاتهم للاتصال يلجؤ ون الى استخدام عدد أكثر من الوحدات اللغوية كما في الأمثلة السابقة .

غير أن النزوع الى الجهد الاقل يؤ دي بهم الى اختزال في الكلمات فكلنا يقول في سياق المحادثة اليوميـة : «جاءت المـازدا» ، «جاءت ال ٢٠٠» و«ركبت الـ ٥٠٤» و«حمّلـت الفيـات» و«تدهورت النيسان» . في كل الامثلـة السابقة تظهر مسألـة الاقتصاد اللغوي في عمليـة حذف المضاف اليه حين يحقق لوحده غاية الاتصال اللغوي . لقد حذفنا في كل الأحوال وحدة لغوية كاملة «السيارة» .

ومن مظاهر الاقتصاد اللغوي ما نشهده من حذف في أواخر الكلمات ، كما هو الحال في اللغة الفرنسية ، كان نقول ciné و cinéma بدل cinematographe و métro بدل chemin de fer metropolitain كما نلاحظ أننا نستعمل حاليا تراكيب اقتصادية مثل «سيارات» بدل المؤسسة العامة للتجارة الخارجيـة للآليـات والتجهيـزات «انترميتال» بدل مؤسسة التجارة الداخليـة ببمعادن ومواد البناء و«تاميكـو» بدل الشركـة العامة للادويـة

و«رودكو» بدل الشركة العامة للطرق» انما نمارس الاقتصاد اللغوي من خلال اختصار الكلمات وبالتاي اقتصاد الجهد اللازم لتحقيق الاتصال اللغوي .

إن ما سبق يسمح لنا بالقول ان في كل اتصال لغوي جهدين متعارضين :

- نقل أكبر كمية ممكنة من المعلومات .
- بأقل جهد ممكن .

وبكلمة أخرى : الرغبة في تحقيق الاتصال في أفضل الشروط والرغبة في التقليل من كلفته . ويتمثل الاقتصاد اللغوي في عملية البحث المستمر من قبل المتكلم عن التوازن بين حاجات الاتصال والميل الى الخمول على مستوى النطق والذاكرة .

ويدخل في عملية النزاع بين هذين الجهدين عنصر ثالث هو التكرار ونعني بالتكرار النسبة المئوية لتكرار فونيم ما أوحده لغوية ما في مجموعة نصوص مختارة ذات صفة تمثيلية . فاذا ما تكررت مثلا ، في هذه المجموعة كلمة «عود» مئة مرة وكلمة «استصحار» مرة واحدة ، نقول إن كلمة«عود»هيأكثر تكراراً مئة مرة من كلمة «استصحار» .

إن العلاقة بين الكلفة والتكرار علاقة تبادلية . فكلما قلت الكلفة زاد التكرار فهناك ميل واضح لدى المتكلم الى استخدام التعابير البسيطة الاقل كلفة . كما ان زيادة التكرار تؤدي الى تقليل الكلفة بسبب التعود طبعاً .

وأخيراً فان الاقتصاد اللغوي دليل تطور اللغة وحركيتها وهو يلعب دوراً أساسياً في تطورها من خلال استبدال الوحدات اللغوية المعقدة بوحدات بسيطة ومن خلال سقوط كل العناصر اللغوية التي لا تحمل قيمة معلوماتية او كل عنصر لا يلعب دوراً أساسياً في الاتصال بين البشر .

لقد عالجنا في هذا البحث ظاهرة تترافق مع الاتصال اللغوي ، الاّ انه لا بد من التنويه بان الاقتصاد ظاهرة كامنة في جوهر اللغة وأساسها ويكفي ان نشير هنا الى العدد المحدود جدا من الفونيمات التي نستخدمها ، في كل لغة من اللغات ، لتكوين ملايين الكلمات والتراكيب ولنعبر عن كل أفكارنا وأحاسيسها .